المشكلة الجزئية الأولى : في الإحساس و الإدراك

العنصر : عوامل الإدراك

السؤال : هل الإدراك محصلة لنشاط العقل أم تصور لنظام الأشياء ؟

المقدمة : معروف عن الإنسان أنه كائن حيوي يمتلك مجموعة من الوظائف والقدرات التي تمكنه من الحفاظ على بقائه وإستمراره وتعينه على التكيف مع محيطه ومن هذه القدرات نجد قدرة الإدراك الذي يعتبر عملية عقلية عليا معقدة يتم فيها تفسير وتأويل وترجمة المؤثرات الحسية التي تنقلها الحواس إلى المراكز العصبية وبهذا يتعرف الإنسان على ما يحيط به ولما كان الإدراك ليس من طبيعة واحدة (بمعنى أنه يختلف من فرد إلى آخر) فإن البحث عن العوامل المتحكمة فيه قد كان محور إهتمام العديد من المفكرين والفلاسفة فهناك من يعتقد بأن العوامل الذاتية المرتبطة بالذات المدركة هي أساس كل عملية إدراكية بينما هناك من يشكك في هذا الطرح ويرى بأن العوامل الموضوعية المرتبطة بالموضوع المدرك هي التي تتحكم في عملية الإدراك وفي ظل هذا الجدل القائم يثار التساؤل التالي : أيهما أهم في الإدراك هل العوامل الذاتية أم العوامل الموضوعية ؟ وبعبارة أخرى : هل يعود الإدراك إلى محصلة نشاط الذات أم إلى بنية الموضوعات المدركة ؟

العرض (محاولة حل المشكلة) :

1 - عرض منطق الأطروحة : يرى أنصار النزعة العقلية من أمثال الفرنسيان رونيه ديكارت و رو ألان والإيرلندي جورج باركلي والألماني إيمانويل كانط بأن الإدراك عملية عقلية ذاتية لا دخل للموضوع المدرك فيها فهناك مجموعة من العوامل النفسية والقدرات العقلية تكون مسئولة مباشرة في القدرة على إدراك الموضوعات

و يستند أنصار هذا الإتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحجة الأولى : إن الفلاسفة العقليون قد ميزوا بين الإحساس والإدراك من حيث طبيعة وقيمة المعرفة المتأتية من كليهما فمن حيث الطبيعة إن الإحساس عملية فيزيولوجية أولية بسيطة مرتبطة بالبدن وهو عالم ثابت مشترك بين الإنسان والحيوان أما الإدراك فهو مرتبط بالعقل أي أنه عملية عقلية عليا معقدة تساهم فيه عمليات ووظائف عقلية عليا من ذاكرة وذكاء وتخيل وتأويل للحكم ...

وهو متطور تبعا لتطور هذه القدرات الذهنية
أما من حيث القيمة للإحساس أدنى قيمة معرفية من الإدراك بمعنى أنه معرفة أولية لم يبلغ بعد درجة المعرفة فهو يحدث صورا ذهنية لا تتضمن أي معنى بينما الإدراك يؤسس على المعرفة الحقة القائمة على الوضوح واليقين والتي تتم في إطار الزمان والمكان يقول ديكارت في هذا : ((أنا أدرك بمحض ما في ذهني من قوة الحكم ما كنت أحسب أني أراه بعيني))

الحجة الثانية : و اعتبروا أن الإحساس هو أسبق من الإدراك فعندما يقع الإحساس يتم جمع المعطيات الحسية كمادة أولية ويتدخل العقل في تأليفها وترجمتها وبالتالي فالإدراك بالنسبة لديكارت هو مجرد أحكام عقلية أي أن الإنسان يدرك بعقله لا بحواسه

الحجة الثالثة : كما أن الإدراك لا يمكن أن يكون عملية حسية لأن المعارف التي تأتينا عن طريق الحواس خاطئة والإدراك معرفة صحيحة ولقد أشار ديكارت إلى هذا بتقديمه لمثال عن أبراج القلعة التي كانت تلوح له مستديرة عن بعد أصبحت تلوح له مربعة عن قرب ويقول في هذا الصدد : ((ولكن إختبارات كثيرة فوضت شيئا فشيئا كل ما لدي من ثقة بالحواس فقد لاحظت مرات عديدة أن الأبراج التي كانت تلوح لي مستديرة عن بعد تلوح لي مربعة عن قرب))

وفي هذا الإتجاه يرى ألان بأن المشاهدة الحسية لا تقدم معرفة كاملة وهذا ما بينه من خلال مثال المكعب الذي لا نرى منه إلا ثلاثة أوجه وتسعة أضلاع فقط بالعين المجردة بينما حقيقته هي ستة أوجه وإثني عشر ضلعا لأننا نعلم عن طريق الخبرة السابقة أننا لو أدرنا المكعب فسنرى الأوجه والأضلاع التي لا نراها لذلك فإدراك المكعب لا يخضع لمعطيات الحواس بل لنشاط الذهن وأحكامه ولولا هذا الحكم العقلي لا يمكننا الوصول إلى معرفة المكعب من مجرد الإحساس يقول ألان في هذا الصدد : ((إن الشيئ يعقل (يدرك) ولا يحس))

ويؤكد باركلي أن الأكمة (أي الأعمى بالولادة) الذي إستعاد بصره بعد عملية جراحية لا يستطيع أن يميز بين الموضوعات البعيدة و القريبة ويقول في هذا الصدد : ((عندما يعاد البصر إلى الأعمى بالولادة فلن تكون لديه أية فكرة عن المسافات في البداية فالشمس والنجوم والأشياء البعيدة أو القريبة تبدو و كأنها ملتصقة بعينيه (لكنها موجودة في فكره) لأن المحاكمة العقلية هي التي تبين لنا مواقع الأشياء المدركة بالبصر وهي ناتجة عن الخبرة والتجربة))

و بعد 20 سنة أكدت أعمال الجراح الإنجليزي شزلندن هذا الرأي وحالة الأكمة تماثل حالة الصبي في مرحلة اللاتمايز فلا يميز بين يديه والعالم الخارجي ويمد يديه لتناول الأشياء البعيدة لأنه يخطئ أيضا في تقدير المسافات لإنعدام الخبرة السابقة لديه يقول ألان في هذا الصدد : ((إن الصياد يدرك جيدا إذا عرف كيف يتعرف على كلابه التي يسمعها إنه يجيد الإدراك إذا عرف كيف يبلغ الحمامة التي تطير بينما الطفل لا يحسن الإدراك عندما يريد بلوغ القمر بيديه أو بلوغ غير ذلك))

أما كانط فيؤكد أن العين المجردة لا تنقل نتيجة الإحساس إلا بعدين من الأبعاد وهما الطول والعرض عند رؤية صورة أو منظر مثلا ورغم ذلك ندرك بعدا ثالثا وهو العمق إدراكا عقليا فالعمق كبعد ليس معطى حسي بل حكم عقلي وهنا يقول ألان :

((الرسامون يعرفون كيف يهيئون شروط إدراك المناظر))

هذا وتؤكد الملاحظة البسيطة والتجربة الخاصة أننا نحكم على الأشياء على حقيقتها وليس حسب ما تنقله لنا الحواس فندرك مثلا العصا في بركة ماء مستقيمة رغم أن الإحساس البصري ينقلها لنا منكسرة ويبدي لنا الإحساس الشمس وكأنها قرص صغير ونحكم عليها بالرغم من ذلك أنها أكبر من الأرض ولهذا يقول ديكارت في هذا الصدد : ((كل ما تلقيته حتى الآن على أنه أصدق الأشياء و أوثقها قد تعلمته عن طريق الحواس غير أنني إختبرت أحيانا هذه الحواس فوجدتها خادعة و أنه من الحذر أن لا نطمئن أبدا إلى من خدعونا ولو مرة))

الحجة الرابعة : كما تتدخل في عملية الإدراك جملة من العوامل المتعلقة بالذات المدركة منها عامل التوقع حيث أننا ندرك الموضوعات ما نتوقع أن تكون وحينما يغيب هذا العامل يصعب علينا إدراك الموضوع فقد يحدث مثلا أن نرى إنسانا نعرفه لكننا لا نذره بسهولة لأننا لم نتوقع الإلتقاء به وللإهتمام والميل والرغبة دورا هاما في الإدراك فالموضوعات التي نهتم بها ونميل إليها ونرغب فيها يسهل علينا إدراكها أكثر من تلك البعيدة عن إهتماماتنا وميولاتنا ورغباتنا فالمنظر الطبيعي الواحد يدرك بكيفيات مختلفة من قبل أشخاص يختلفون في الميول والرغبات فالفلاح مثلا يهتم به من حيث التربة وقابليتها للإستنبات والرسام يدركه من حيث المنظر وإنسجام الألوان كما أن للتعود دورا لا يقل عن دور العوامل السابقة فالعربي مثلا في الغالب يدرك الأشياء من اليمين إلى اليسار لتعوده على الكتابة بهذا الشكل ولتعوده على البدء دائما من اليمين بعكس الأوروبي الذي يدرك من اليسار إلى اليمين لأن كتابتهم اللاتينية تبدأ من ذلك الإتجاه كما أن الإدراك

يتأثر بالحالة النفسية الدائمة أو الموقتة فإدراك الشخص المتفائل لموضوع ما يختلف بطبيعة الحال عن إدراك الشخص المتشائم له كما تتدخل في عملية الإدراك عوامل ذهنية كالإنتباه والتركيز والذكاء والتجارب والخبرات السابقة ... كلها عوامل تحدد مدركات الفرد فالتلميذ المنتبه أكثر إدراكا للدرس من التلميذ شارد الذهن كما أن الذكي أكثر إستعاب للأمور من الأقل ذكاء و الأشياء التي نملك عنها تجارب وخبرات مسبقة يكون إدراكها أسهل من تلك التي ليس لدينا عنها أي تجربة أو خبرة مسبقة كما توجه الإدراك أيضا عوامل فيزيولوجية فسلامة الحواس والمرض والصحة والجوع ... هي حالات فيزيولوجية تؤثر في عملية الإدراك فالشخص الذي تكون أعضاءه الحسية سليمة يكون أحسن إدراكا من الذي يكون هناك خللا في مستوى أعضاءه كخلل في البصر أو السمع ... والشخص الذي يكون مريضا لا يكون إدراكه مماثلا للذي ينعم بصحة جيدة والجائع يرى الأشياء على غير ما يراها الإنسان الذي يكون في حالة شبع الأمر نفسه ينطبق على الظمآن الذي يرى في السراب ماءا ثم إنه لا يمكن أن نتجاهل عاملي السن والمستوى الثقافي والتعليمي فإدراك الراشد للأشياء يختلف عن إدراك الصبي لها وإدراك المتعلم أو المثقف يختلف بطبيعة الحال عن إدراك الجاهل أو الأمي

النقد : حقيقة لا يمكن إنكار دور الذات المدركة في عملية الإدراك إلا أن ذلك لا يلغي قيمة الموضوع الخارجي لأن غياب عوامل معينة يبطل عملية فالكثير من الوقائع التي ندركها يتحدد إدراكها حسب نظامها لا حسب الميول والأذواق فمجموعة الطيور وهي ملحقة في الجو متشابهة في الشكل واللون والحجم ومتقاربة وذات إتجاه مشترك نميل كلنا على إدراكها في بنية شاملة مما يوحي بدور العامل الخارجي في الإدراك كما أنه إذا كان للخبرة أو ملكة العقل دخل في إدراكنا للموضوعات فكيف نفسر إختلاف إدراكنا لنفس المواضيع باختلاف تغير شكلها أو وضعها مثال ذلك أن السائق في وسط المدينة يستطيع أن يرى عددا من المواطنين بمختلف أشكالهم وجنسهم وعمرهم ولكن من كل ذلك لا يلاحظ إلا مجموعة من الأفراد ذوي اللباس الأزرق أو الأخضر فما الذي جعل السائق يميز بين الدر كي والشرطي وبقية البشر لابد أن هناك عوامل خارجية ثم أن أنصار هذه النظرية قد بالغوا في موقفهم هذا حين رفضوا دور الإحساس في عملية الإدراك بينما الواقع يؤكد بأنه لا يوجد إدراك عقلي خالص أي أن الإحساس مرحلة أولية لحدوث الإدراك بدليل أن المعرفة عند الطفل تبدأ بما هو حسي ثم ترتقي

إلى ما هو عقلي تجريدي

2 - عرض نقيض الأطروحة : وعلى خلاف الموقف الأول يعتقد أنصار المدرسة الجشطالتية وفي مقدمتهم كوفكا ، كوهلر و فرتهيمر والفيلسوف الفرنسي بول غيوم بأن إدراك الأشياء عملية موضوعية وليس وليد أحكام عقلية تصدرها الذات فطبيعة الشيئ المدرك هي التي تحدد طبيعة إدراكنا أي أن إدراك الموضوع متوقف على طبيعته وبنيته وليس على الخبرة والعقل كما يتصور الذهنيون

و يستند أنصار هذا الإتجاه في تبرير موقفهم على الحجج التالية :

الحجة الأولى : إن الإدراك عند الجميع يمر بمراحل ثلاث : إدراك إجمالي (صورة أولية غامضة) وإدراك تحليلي للعناصر الجزئية (إدراك العلاقات القائمة بين أجزاء الشيئ المدرك) وإدراك تركيبي (ربط الأجزاء بالموضوع) وفي هذه العملية ندرك الشكل بأكمله ولا ندرك عناصره الجزئية فإذا شاهدنا الأمطار تسقط فنحن في هذه المشاهدة لا نجمع بذهننا الحركات الجزئية للقطرات الصغيرة التي تتألف منها الحركة الكلية بل أن الحركة الكلية هي التي تفرض نفسها علينا كذلك الشأن بالنسبة لسماع مقطوعة موسيقية فإننا ندركها كنغمة أساسية متماسكة وليس أن تسمع الآلات الوترية أولا ثم تعقبها الآلات النفخية ثانيا ثم تليها الآلات الإيقاعية ثالثا ... إلخ بل أنها كلها متداخلة في وحدة متميزة وعليه فالشخص يدرك الصيغة الكلية للشيء المدرك وبعد ذلك يأتي دور التفاصيل الجزئية التي لا بد لها أن تتكامل في هذا الكل والمقصود بالكل ليس مجموع العناصر التي يتألف منها بل خصائصه العامة

الحجة الثانية : كما أن أنصار هذه النظرية رفضوا التمييز بين الإحساس والإدراك فلا وجود لإحساس خالص ولا إدراك مجرد فالإحساس والإدراك حسب بول غيوم يكون دفعة واحدة إذ يقول في هذا الصدد : ((ليس الإدراك تجميعا للإحساسات بل يتم دفعة واحدة)) وبذلك فإن الإدراك ليس إدراكا لمجموعة من الإحساسات المنظمة بواسطة العقل بل هو إدراك لمجموعة من العناصر المنظمة تنظيما موضوعيا لأن العالم الذي ندركه ليس عالما من الفوضى بل هو عالم منظم بفعل قوانين موضوعية تسمى بقوانين الإنتظام وهي التي تجعل الشخص يدرك الموضوع كصيغة أو شكل وإنتظام هذه البنية أو تفككها هو الذي يحدد نوع الإدراك بل أن تبدلها مع تبدل الظرف الخارجي يؤدي إلى تبدل الموقف منها وأهم هذه القوانين نجد :

قانون الشكل والأرضية فلكل شكل أو صورة في العالم الخارجي أرضية أو خلفية فكلما كان الشكل مخالفا للأرضية كان الإدراك أسهل ومثال ذلك إدراك نقطة سوداء في خلفية بيضاء يكون أسهل بكثير من إدراك نقطة سوداء في خلفية سوداء وهناك قانون التشابه فالموضوعات والأشياء المتشابهة في الشكل أو الحجم أو اللون تكون سهلة الإدراك لأنها تشكل في مجموعها كُلا موحدا مثال ذلك أنه يسهل علينا إدراك مجموعة من الجنود أو رجال الشرطة لتشابه الزي أكثر من مجموعة من الرجال في السوق أو الشارع وهناك قانون التقارب فالموضوعات والأشياء القريبة في الزمان والمكان تميل إلى التجمع بأذهاننا وتدرك بسهولة في وحدة أو في شكل واحد فمثلا النقاط المتقاربة من بعضها البعض تدرك كخط مستقيم وهناك قانون الإغلاق ونجد قانون البروز فكلما كانت الموضوعات والأشياء بارزة سهل إدراكها على خلاف الموضوعات غير البارزة التي يصعب إدراكها مثل إدراك سفينة على سطح البحر وهناك قانون الشمولية فالشكل المركب الذي يتألف من أشياء أخرى يدرك كصيغة واحدة أما أجزاءه فلا تدرك إلا بعد التمعن فمثلا النجمة السداسية عندما نمعن النظر فيها ماهي في حقيقة الأمر إلا مثلثين متقاطعين وهناك قانون الوضوح والبساطة فكلما كانت الموضوعات و الأشياء بسيطة و واضحة يسهل إدراكها أما إذا كانت هذه الموضوعات والأشياء معقدة وغير واضحة صعب إدراكها ونجد أيضا قانون المصير المشترك مفاده أن الأشياء التي تقع في العالم الخارجي مرتبطة بشروط محددة إذا تمكن الإنسان من معرفتها إستطاع التنبؤ بها فكل شيئ يؤول إلى نتيجة معينة فمثلا ندرك أن الطفل إذا ما وضع يده على النار فسوف يحترق لذلك تجدنا نصرفه عنها متى رأيناه يتجه نحوها وفي أهمية هذه العوامل يقول بول غيوم : ((إن الوقائع النفسية صور أي وحدات عضوية تنفرد وتتحدد في المجال المكاني والزماني للإدراك و تخضع الصور بالنسبة للإدراك لمجموعة من العوامل الموضوعية)) مما يعني أن الإدراك يعود إلى قوانين موضوعية

النقد : صحيح أنه لا يمكن إنكار دور الموضوع المدرك في عملية الإدراك بحكم أنه يتضمن عوامل تسير عملية الإدراك لكن ذلك لا يفسر أن الإدراك عملية موضوعية خا لصة مستقلة عن نشاط الذات فلو كان الإدراك ذو طابع موضوعي محض لكانت إدراكات الناس لموضوع واحد متطابقة إلا أن الواقع يثبت عكس ذلك ويؤكد أن الإدراكات تختلف من شخص إلى آخر تبعا لإختلاف العوامل الذاتية ثم إن العالم الخارجي ليس أوضح كل الوضوح إلى درجة يلغي دور الذات فلو

نفسر ونؤول ونعتمد على الخبرة السابقة لما أدركنا الأشياء على حقيقتها كما أن الإلحاح على أهمية العوامل الموضوعية في الإدراك وإهمال العوامل الذاتية لا سيما دور العقل يجعل من الشخص المدرك آلة تصوير أو مجرد جهاز إستقبال فقط ما دامت الموضوعات هي التي تفرض نفسها عليه سواء أراد ذلك أم لم يرد مما يجعل منه في النهاية مجرد متلقي سلبي منفعل لا فاعل

التركيب : الحقيقة أن عملية الإدراك لا تعود إلى فعالية الذات والعقل فقط ولا إلى العوامل الموضوعية وفقط و إنما هي عملية متكاملة و متداخلة تتم بتضافر الكثير من العوامل الذاتية مع العوامل الموضوعية فهناك شروط ذاتية متعلقة بالذات المدركة ممثلة في الحالة النفسية والعقلية والجسمية ... إلخ و أخرى موضوعية تتعلق بالموضوع المدرك و شروطه الخارجية و التي يجب أن تتوفر حتى يتمكن الفرد من إدراك الأشياء على حقيقتها و معرفة العالم الخارجي بشكل كامل لأن الواقع يثبت التلاحم و التزاوج الواضح بين الذات و الموضوع فالذات المدركة ترتب المعارف و تنظمها و تحللها و الموضوع الخارجي بشكله و بناءه العام يؤثر و يتحكم في العملية الإدراكية و عليه فالعلاقة بين هذه العوامل هي علاقة تكامل و وإنسجام

وأنا بدوري أرى أن الإدراك ما هو إلا محصلة لمجموعة العوامل الذاتية والموضوعية فلكل مهما نصيب تحديد إدراكاتنا فالفرد باعتباره ذات فأنه يتأثر بحالته النفسية من فرح وسور وملكاته وخصائصه العقلية من نباهة واهتمام وتوقع ونفس الشيء ينطبق على العوامل الموضوعية في تسهل للذات إدراك الموقف الخارجي

الخاتمة (حل المشكلة) : وبناءا على ما سبق نستنتج أن الإدراك عملية معقدة ومركبة تعود أساسا إلى تفاعل حيوي و مستمر بين العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية فهذا التفاعل هو الذي ينظم عملية الإدراك و يعطيها الشكل المناسب و الصحيح الذي يمكننا من فهم العالم و التعايش معه فرغم الجدل القائم حول عوامل الإدراك وطبيعته إلا أن الإنسان ومن خلال الإدراك أوجد طرقا للتكيف مع محيطه وبني جنسه

dirassatidz.com